Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 37:3 (2002)

السهروردي الحلبي الحكيم الإشراقي

عبد الفتاح رواس قلعه جي

قبر خارج السور:

أمام برج الثعابين المكتشف حديثا في حفريات باب الفرج بحلب وخارج السور يقوم جامع صغير سمي باسم السهروردي ويضم ضريحه الذي يقع في الجهة الغربية من قبلية المسجد[1]، وقد وسعت قبلية المسجد حديثا وأجريت عليه بعض التحسينات، ورغم هذا فإن قبلية المسجد تضيق بالمصليين الذين يؤمّونه لصلاة الجمعة فينتشرون خارجا وتملأ صفوفهم الزقاق الواقع بين المسجد وبوابة القصب. نقل جثمان السهروردي بعد إعدامه في سجن قلعة حلب إلى هذا المكان من ظاهر السور ثم أنشئ حوله فيما بعد مسجد دعي باسمه يقول الشاعر الحلبي محمد أبو الوفا الرفاعي في منظومته (١١٧٩ ـ ١٢٦٤هـ = ١٧٥٦ـ ١٨٤٥م).

والسهروردي الصغير يحيى وحوله أتباعه في الدنيا
وقبره بالقرب من باب الفرج إلى الشمال ليس فيه من عوج

يقول ابن أبي أصيبعة: حدثني بعض أهل حلب قال: لما توفي شهاب الدين ـ رحمه الله ـ ودفن بظاهر مدينة حلب وجد مكتوبا على قبره.

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة مكنونة قد براها الله من شرف
فلم تكن تعرف الأيام قيمته فردها غيرة منه إلى الصّدف[2]

يقول الشيخ راغب الطباخ أنه كان لمسجد السهروردي صحنٌ متسع خرب، وفي سنة ١٣٢٨هـ وضعت دائرة المعارف يدها عليه واعتبرته من الأوقاف المندرسة وعمّرت الصحن مع جانب من المسجد طابقين وآجرتهما إلى دائرة البرق والبريد. ثم يقول: وقبر السهروردي درس وهو أمام باب الدائرة المذكورة (يقوم مكانها الآن مركز للشرطة) بينه وبين الباب خمسة أذرع، واتخذ له قبر آخر ضمن ما أبقى من المسجد تغطية وتعمية كي لايقال إنهم درسوا القبر[3].

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

السهروردي في الوجدان الشعبي:

يزور العامة ضريح السهروردي ويتبركون به وأغلبهم لا يعرف عنه شيئا ويسمونه السليوردي أو السالي وردي محرفة عن السهروردي ويطلق الاسم على الإنسان النحيل، الضعيف القوة الجسمانية المفكك الأوصال، ومن تشبهات الحلبيين (مِثْل عبْد السليوردي: مِنِينْ مَا كَمَشْتُو بَنزَّلْ بَايَدَّكْ) يعتقدون أن من كراماته وأمره العجيب أنك من أي مكان أمسكته من أعضاء جسمه انفصل هذا العضو وصار في يدك ويعود هذا التشبيه إلى قصة نأتي على ذكرها.

تسأل المسنِّين من العامة عن السهروردي فيقولون: إنه واحد من أربعة جمعوا علوم الأرض وكشفت لهم الحجب وهم: الحلاج والنسيمي والسهروردي والسلاخ(٤)، دخلوا قبة دانيال(٥) وأغلقت عليهم فقرؤوا ما على جدرانها من علوم ومعارف وغيبيات مكتوبات ولما فتحت في العام التالي خرجوا بما لم يؤته أحد من علم.

ويزعم العامة أن أخلاط الناس يتجمهرون في انتظار ظهور القبة - المزعومة - وهم يحملون قطع الطين في أيديهم، فإذا ظهرت سارعوا إلى لصق الطين على جدرانها ثم انْتِزَاعه ليقرؤوا ما انطبق عليه من كتابات، ثم يهرعون إلى الخروج قبل أن تنطلق عليهم.

والقبة في اعتقادهم الشعبي حقيقة مادية، وهي في دلالتها رمز لتحصيل العلوم والمعارف عن طريق العرفان والكشف النوراني. ومنهم من يقول: إن القبة في المغرب، ومنهم من يقول إنها في المشرق ومن غريب الأمور أن التصور الشعبي لايحفل بالتحقيق الزمني فقد جمعوا بين الأربعة وهم من عهود مختلفة وقالوا إنهم خرجوا من القبة معا بعلوم لَدُنِّية ما أوتيها أحد، وراحوا يتكلمون بما لا يدركه البشر، ويجادلون العلماء فيظهرون عليهم فشكاهم الناس إلى الحاكم، فدعاهم، وجادلهم أهل العلم، واتهموهم بالزندقة فحكم عليهم السلطان بالموت، فاستأذنوه أن يغتسلوا في بركة القصر ليصلوا ركعتين قبل الموت، واغتسلوا في ماء البركة، فغابوا عن الأنظار، فظهر ثلاثة منهم في حلب هم السهروردي وضريحه في ظاهر باب الفرج، والنسيمي وضريحه قرب قلعة حلب بجانب حمام السلطان، والسلاخ وضريحه في الكاسة بحلب وقد زال مع فتح الجادة الجديدة، أما الرابع وهو الحلاج فظهر في بغداد، وقد انتهت حياة الأربعة فيما بعد بالموت سلخا وصبرا وصلبا.

أخبار محققة: أهي من السيمياء أم الاشراقية التجريبية

يذكر ابن أبي أصيبعة أن شهاب الدين السهروردي كان يعرف علم السيمياء(٦)، وله نوادر في هذا الفن منها ما رواه الحكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صدقة أنه اجتمع به في ظاهر باب الفرج بدمشق وكان يتمشى مع بعض تلامذته فقال الشيخ السهروردي: ما أحسن دمشق وهذه المواضع فنظروا

فرأوا أشجارا وقصورا ونساء فاتنات يطللن من النوافذ وأنهرا جاريات، قال الحكيم إبراهيم الذي شاهد ذلك من قبل: "فبقينا نتعجب من ذلك وتستحسنه الجماعة وانذهلوا لما رأوا، فبقينا كذلك ساعة، ثم غابَ وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمان، إلا أنه عند رؤية تلك الحالة الأولى العجيبة بقيت أحسُّ في نفسي كأنني في سنة خفيفة". ومنها ما رواه ابن أبي أصيبعة عن أحد فقهاء العجم حضر الحادثة أن تلميذا للشيخ اشترى شاة بعشرة دراهم من راع تركماني، ولما جادله الشيخ في الأمر غضب التركماني وجذب الشيخ من يمناه فانخلعت وانفصلت عن جسده. ورماها على الأرض هاربا فالتقط الشيخ يده من الأرض وعاد إلى تلاميذه فإذا به لا يحمل غير منديل أحمر كيف نفسر ما أثر عن السهروردي من هذه الحوادث بمسنور في ذلك أربعة تفسيرات.

١- يتساءل الأديب سامي الكيالي في كتابه عن السهروردي. هل لجأ إلى التنويم المغناطيسي أم إلى ظواهر الروح ثم يقول: أن العلم الحديث يقر اليوم "ظاهرة الجلاء البصري"، وفيها يرى الوسيط صورة لشيء لا يراها غيره، وتكون الرؤية باستعمال حس فوق الحس الفيزيولوجي.

٢- بالتأكيد لم يكن ما قام به السهروردي ضربا من التنويم المغناطيسي ولكن لا يمكن أن نرده إلى براعته في السيمياء، خاصة وإن ابن أبي أصيبعة أورد هذه الحوادث في معرض حديثه عن علم السهروردي بالسيمياء، ونشير هنا أنّ لهذا العلم جانبين:

أ- **مادي:** وهو تحويل المعادن إلى ذهب وهذا ما فشل به العلماء الأقدمون.

ب- **روحي:** وهو التحويل الروحي، أو الارتقاء بالروح من حالة "المدرك العادي" إلى حالة أعلى "المدرك فوق العادي".

انطلاقا من أن الروح جوهر وما عداها من غواسق البدن والأشياء عرض وأن الفكر سابق الصنع ومُنْتِجه وله الحقيقة، فالروح المتعالية تستطيع أن تدرك، وأن ترى، وأن تخلق بصريا ما هو "فوق العادي" وتحول العادي إلى ما "فوق العادي" كما سنرى في حادثة البلخش، إذ تحمل المادة مؤثرا روحيا فيراها الرائي وإن كان بعيدا عن المؤثر الأصلي، مادة أخرى بصفات مختلفة.

يذكر ابن خلدون في مقدمته(٧) أن علم الحروف واستخراج المغيبَّات منها هو المعروف بالسيمياء، غير أن حوادث السهروردي بعيدة عن هذا الجانب.

٣- ومع عدم استبعادنا للجوء السهروردي إلى السيمياء الروحية فإننا نرى أن ما قام به السهروردي هو وضع فلسفته الإشراقية في مجال التجريب والتطبيق، ثمة تجربة روحية مثيرة في انسكاب الأنوار وتشعشعها قام بها على نفوس محيطة به استطاع الارتقاء المؤقت بها من عالم الغواسق والأجسام إلى عالم المثل المعلقة والتي يرى فيها الإنسان المرتقي كل ما هو موجود في العالم الحسي من

غنى وتنوّع وإنما في صورة أرقى وفي حالة الطيفة غير مادية وهذا يفسر قول الحكيم ابن أبي الفضل: "بقيت أجس في نفسي كأنني في سنة خفيفة" وسنأتي على ذكر هذه العوالم في فلسفة السهروردي.

إن التجريب الروحي أمر لم يعد من الممكن إغفاله، وله من الاعتبار في مجالاته ما للتجريب العلمي في مجالاته، والاتجاه الأمثل في البحث اليوم يسير إلى اعتبار أن العالم كل لا يتجزأ وأن ثمة عنصرا عاقلا واعيا كليا يقوم في الموجودات من الذرات إلى الأفلاك هو علة الحركة الكلية الجوهر في نهر الكون، وهذا ما عبر عنه الفلاسفة الأوائل والإشراقيون والعرفانيون بظهور الحق في الخلق، أو في شكل آخر، كما عند ابن عربي بأن الموجودات هي تجليات الحق بأسمائه وصفاته لا بذاته.

٤- يقول ابن عربي في فصوص الحكم (الفص السادس): "والعارف يخلق بالهمة ما يكون له وجود من خارج محل الهمة، ولكن لا تزال الهمة تحفظ، ولا يؤوده حفظه أي حفظ ما خلقته، فمتى طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق عُدِم ذلك المخلوق".

فالعارف يستطيع أن يخلق أشياء، ليست من قبيل التوهم، بل يكون لها وجود في العالم الخارج المحسوس، وأداته في الخلق هي "الهمة" وتعرف عند المتكلمين باسم "الإخلاص" وعند الصوفية باسم "الحضور" وعند العارفين باسم "الهمة" وهي قوة غريبة "عناية إلهية" لا تُعرف ماهيتها، يسلطها العارف في حال فنائه في الله على أي شيء يريد أن يكون فيكون، وبما أن الفناء لا يكون في الذات وإنما في الأسماء والصفات (الأسماء = الأرباب) فعملية الخلق حقيقة تعود إلى الحق وليس إلى العارف، وإنما يكون العارف وسيطا في هذه العملية. غير أن العارف لا بد في النهاية أن يغفل عما خلق ـ بالوساطة ـ فيعدم، أما الحق فلا يغفل فيبقى ما خلق لكنه يورد طريقا لحفظ الصور وذلك بتوالد (= خلق) الصور من بعضها ويعطي هو أي العارف عنايته للصورة الأولى فلا يغفل عنها فتنحفظ بها جميع الصور.

سؤالان:

أ- هل قام ابن عربي بوضع هذه الأطروحة الخطيرة في مجال التجريب، وهو العارف، كما فعل السهروردي في إشراقيته التجريبية، أم أنه خاف عواقب الأمور، علما بأنه يعتز بهذا الكشف بقوله: "وهذه مسألة أخبرت أنه ما سطرها أحد في كتاب لا أنا ولا غيري إلا في هذا الكتاب".

ب- ألا يمكن أن يتعاون ويتحاور التجريب الروحي الإشراقي ـ والتجريب العلمي، في الكشف عن تركيب العناصر المخلوقة بالهمة وذلك لتصل إلى يقين كلي وروحي.

حياة وخيوط مأساة:

قال ابن خلكان: هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب شهاب الدين السهروردي

الحكيم المقتول بحلب، وقيل اسمه أحمد. وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح، ذكر أحمدْ بن أبي أصيبعة في **طبقات الأطباء** أن اسم السهروردي المذكور عمر ولم يذكر اسم أبيه.

والصحيح أن اسمه يحيى، ولد عام ٥٤٩هـ = ١١٥٥م في سهرورد بإيران إبّان الاضطرابات المغولية. قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمراغة من أعمال أذربيجان. والجيلي هو شيخ الإمام فخر الدين الرازي.

وهو يعرف لدى المؤرخين بالسهروردي الحلبي تمييزاً له عن آخرين اشتركوا معه في النسبة. رحل إلى أصفهان، ثم إلى ديار بكر حيث أحسن استقباله الأمير السلجوقي عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بن داؤد بن أرتق، وألف له كتاب **الألواح العمادية**، ثم جاء حلب واستقر فيها حتى نهاية حياته.

قال ابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ سديد الدين محمود بن عمر قال: كان شهاب الدين السهروردي قد أتى إلى شيخنا فخر الدين الماردِيني وكان يتردد إليه في أوقات وبينهما صداقة. وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: "ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ولم أجد أحدا مثله في زماني إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون سببا لتلافه".

وصل السهروردي إلى حلب سنة ٥٧٩هـ وهو ينشد:

لا يمنعك خفض العيش في دعة ... من أن تبدل أوطاناً بأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلا بأهل وخلاناً بخلان

فهل كانت حلب، وأهل حلب، كما ارتجى الشاعر، والفيلسوف الإشراقي؟ .. اتجه السهروردي إثر وصوله إلى المدرسة الحلاوية وهي تقع مقابل الباب الغربي للجامع الكبير في سوق الحدادين. وكانت الكاتدرائية العظمى للمسيحيين قبل أن يحولها القاضي ابن الخشاب مسجداً إثر حصار الصليبيين لمدينة حلب.

وكان مدرّسها حين وصول السهروردي افتخار الدين قاضي الحنفية. دخل السهروردي المدرسة وهو لابس دلقاً ومجرد بإبريق وعكاز خشب فلما جلس بين الفقهاء وحاورهم عرف افتخار الدين مبلغ عمله فأخرج له ثوباً عنابياً وغلالة وبقياراً وأرسلها له مع ولده، لكن الشيخ قال له: ضع هذا القماش يا ولدي واقض لي حاجة. وأعطاه فصّ بلخش رمّاني بقدر بيضة الدجاجة ما ملك أحد مثله في قده ولونه وقال له: خذه إلى السوق وناد عليه. ومهما أعطيت من ثمن لا تبعه قبل أن تراجعني. وبلغ ثمن الفص في السوق خمسة وعشرين ألف درهم، فأخذه عريف السوق إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ملك حلب فأعجب به ورغب في شرائه. فعاد ابن افتخار الدين إلى الشيخ السهروردي ليطلعه على الثمن، فأمسك السهروردي الفص وضربه بحجر حتى فتّته وقال: خذ

يا ولدي هذه الثياب وقل لوالدك: لو أردنا الملبوس ما غلبنا عنه. ولما طلب الملك الظاهر الفص من افتخار الدين ليشتريه قال له: إنه ليس لي وإنما لرجل فقير نازل عندي، فتفكر الملك وقال: يا افتخار الدين إن صَدَق ظني فهذا شهاب الدين السهروردي.. كان السهروردي إذن زاهداً في الدنيا لا يلتفت إلى ثيابه. يقول سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيقه: كان الشيخ شهاب الدين السهروردي رثَّ البزة لا يلتفت إلى ما يلبس ولا له احتفال بأمور الدنيا. قال: وكنت أنا وإياه نتمشى في جامع ميافارقين وهو لابس جبة قصيرة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة وفي رجليه زربول، فرآني صديق لي فأتى إلى جانبي وقال: ما جئت تماشي الا هذا الخرابندا (المكارى) فقلت له: اسكت! هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي.

قرّب الملك الظاهر غازي السهروردي إليه وأكرمه واصطفاه، فأثار بذلك حسد العلماء ونقمتهم، وزاد في ذلك دخوله في مناظرات معهم وظهوره عليهم فتعصّبوا عليه وأفتوا في دمه متهمين إياه بانحلال العقيدة والتعطيل واعتقاده مذهب الحكماء المتقدّمين، وكان أشد الجماعة عليه الشيخان زين الدين ومجد الدين من أبناء جَهْبَل.

قال الشيخ سيف الدين الأميري: اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي: لا بد أن أملك الأرض فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه.

وللسهروردي أبيات تؤكد ذلك، قيل أنه تعرض بها للملك الظاهر وربما وصلت إلى أبيه الناصر صلاح الدين فكانت سبباً لقتله، يقول فيها:

وبي أمل أني أسود وكيف لا ... وآل بويه بعد فقرهم سادوا

وأحكم في أهل الزمان كما أشا ... وأملك ماصانوا، وأهدم ماشادوا

وأفعل ما اختار في كل فاسق ... من الصيد حتى لاتراهم وقد بادوا

ونقف قليلا عند هذه النقطة.

يصنف السهروردي في كتابه **حكمة الإشراق** مراتب الحكماء كما يلي:

١- حكيم إلهي متوغل في التأله عديم البحث، (وهو كأكثر الأنبياء والأولياء من المتصوفة).

٢- حكيم بحاث عديم التأله (وهو كالمشائين وكالفارابي وابن سينا).

٣- حكيم إلهي متوغل في التألّه والبحث وهذا هو الحكيم الإشراقي الذي يجمع بين الحكمتين الذوقية والبحثية (كالسهروردي).

٤- حكيم إلهي متوغل في التألّه متوسط في البحث.

٥- حكيم إلهي متوغل في التألّه ضعيف في البحث.

٦- حكيم إلهي متوغل في البحث متوسط في التألّه.

٧- حكيم إلهي متوغل في البحث ضعيف في التألّه.

ويعتبر السهروردي أن أرقى المراتب هي الثالثة وصاحبها هو الإمام أو القطب والأجدر بالحكم. ويعتبر السهروردي نفسه واصلا إلى هذه المرتبة فهو الأجدر بالقيادة الدينية والدنيوية. ومثل هذه الدعوى تعتبر خطراً على السلطات الحاكمة، خاصة وأنه كان للسهروردي مريدون وأصحاب وأنصار يستدل على ذلك بقول ابن شداد: أخرج الشهاب السهروردي ميتا من الحبس بحلب فتفرّق عنه أصحابه.

هذا التحليل يقودنا إلى نفي السبب الذي أورده المستشرقان فون كريمر وهورتن لمقتله وفيه يذهبان إلى أنه وضع مذهبه في دائرة الدعوى الإسماعيلية القائلة بأن أبناء علي كرم الله وجهه هم صور للتجلي الإلهي معتمداً على نص للسهروردي يقول فيه: "العالم ما خلا قط من الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات" ويقول بعد أن يصنف مراتب الحكماء: "إن اتفق في الوقت متوغل في التألّه والبحث فله الرياسة، وإن لم يتفق فالتوغل في التألّه المتوسط في البحث، وإن لم يتفق فالحكيم المتوغل في التألّه عديم البحث، وهو خليفة الله (أي الحاكم) ولا تخلو الأرض من متوغل في التأله أبداً إذ لا بد للخلافة من التلقي،وهذا الإمام الذي تتوفر فيه هذه الصفات وهو الأحق وقد يكون مستوليا (أي حاكما فعليا) فيكون الزمان نوريا، وقد يكون خفياً وهو ما يسميه المتصوفة باسم القطب". فالسهروردي إذن يتناول مسألة الإمامة تناولا فلسفيا، مذهبياً ولا طائفيا، ولا يجعلها محصورة في أبناء علي رضي الله عنه.

لكن أي دعوى للإمامة (الدينية والدنيوية) في مدينةٍ كحلب شهدت تحوُّلا مذهبيا من العهدين الحمداني والمرداسي إلى العهدين الزنكي والأيوبي، وتعيش في ظل حكم طوارئ (عسكري) بسبب ظروف الحرب مع الصليبيين وتفاقم الخطر المغولي، بالإضافة إلى ازدياد نفوذ رجال الدين وخوف الحكام من الحركات الباطنية، نقول أي دعوى من هذا القبيل ستتعرض إلى الإخماد حفاظا على الاستقرار وتجنبا للفتنة.

كان السهروردي شافعي المذهب يلقب بالمؤيد بالملكوت، وقد اختلف الناس في أمره بعد موته فمنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات، ومنهم من يعتقد غير ذلك. وقد أدانه خصومه بقوله: "إن الله قادر أن يخلق نبيًّا" ولم يشاؤوا التمييز بين ممكن في حد ذاته وممكن لم يقع[٨]، وزعم عليه ما ذكره الشيخ أحمد الملا في **مختصره لتاريخ الذهبي** من أن تلميذا له قال له: قد كثر القول بأنك تقول: النبوّة مكتسبة فاخرج بنا، فخرج إلى قرية دوير بن الخشاب فأكل البطيخ وتناول من حفرة فيها بعض الحصى ثم دهنه بدهن معه وشده إلى وسطه ووسط أصحابه أياما ثم حله فإذا هو ياقوت أحمر باع منه ووهب، ولما قتل وُجد شيء منه في وسطه!.

السهروردي يرى استمرار النبوّة (= حق الحكم والتشريع) في الإمام، لكن خصومه أوّلوا ذلك بأنه يرى إمكانية وضرورة استمرار بعث الأنبياء لحفظ نظام الكون.

عندما وصلت شكاة علماء من حلب إلى صلاح الدين أمر ولده بقتله فألقي القبض عليه، وحبس في سجن القلعة، وأرسل الملك الظاهر إليه من خنقه في السجن، وقيل إنه طلب من الملك بعد أن خيّره أن يسجن في القلعة ويمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت صبرا، وهكذا كان. ومهما يكن الأمر فقد توفي عام ٥٨٧هـ = ١١٩١م عن عمر لم يتجاوز الثامنة والثلاثين.

ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال: "لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سَلْخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه".

ثم إن الملك الظاهر غازي بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه فقبض على جماعة منهم وأهانهم واعتقلهم وأخذ منهم أموالا عظيمة، وعدَّ ذلك من كرامات السهروردي بعد وفاته.

وقيل إن السهروردي لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد:

أرى قدمي اراق دمي وهان دمي فها ندمي

وقال عند وفاته وهو يجود بنفسه:

قل لأصحابي رأوني ميتاً فبكوني إذ رأوني حزنا
لا تظنوني بأني ميت ليس ذا الميت والله أنا
أنا عصفور وهذا قفصي طِرْت عنه فتخلى رهنا
وأنا اليوم أناجي مَلأً وأرى الله عياناً بهَنَا
فاخلعوا الأنفس عن أجسا دِهَا سترون الحق حقاً بيِّنا
عنصر الأرواح فينا واحد وكذا الأجسام جسم عمَّنا
ما أرى نفسي إلا أنتم واعتقادي أنكم أنتم أنا

وكان السهروردي إذا أجنَّ الليل دعا ربه قائلا:

"اللهم يا قيّام الوجود فائض الجود ومنزّل البركات ومنتهى الرغبات، منوِّر النور ومدبر الأمور، واهب حياة العالمين، أمددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهّرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ومعاينة أضوائك ومجاورة مقرّبيك وموافقة سكان ملكوتك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين والأنبياء والمرسلين".

ومثل هذا الكلام لا يقوله إلا مؤمن شديد الإيمان.

لاشك أن حياة السهروردي ما كانت لتنتهي على هذا الشكل المأساوي لولا أن حلب كانت أحد معاقل الفكر الديني الملتزم بأصول الشريعة على نهج الظاهر وطريقة السلف، وأن السهروردي كان فيه حماس الشباب وتهوّره في الإفصاح عن آرائه الدينية والفلسفية وفي الإدلال بمعرفته على زملائه من العلماء والفقهاء مما أثار نقمتهم، وإن صلاح الدين الأيوبي نفسه كان مبغضاً للفلسفة وأصحابها. وإذا كان ابنه الملك الظاهر غازي قد حاول درء الخطر عن صديقه السهروردي والمماطلة في تنفيذ الحكم فإن خصوم السهروردي كانوا بالمرصاد فعملوا محاضر بكفره وسيروها إلى دمشق وقالوا للملك الناصر صلاح الدين: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر،وإن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها في البلاد، ويقول ابن أبي أصيبعة: أنهم ـ أي خصومه ـ قد زادوا عليه أشياء كثيرة، فأرسل صلاح الدين إلى ابنه ملك حلب الملك الظاهر غازي كتابا خطه وزيره القاضي الفاضل يقول فيه: إن هذا السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه.

ويبدو أن شجاعة السهروردي في الإعراب عن آرائه ناجمة عن عدم خوفه من الموت لإيمانه العميق بأن النفس تصبو إلى الصعود إلى منشئها ولا يكون ذلك إلا بتخففها من أثقالها المادية. يقول من قصيدةٍ له أنشأها على غرار عينية ابن سينا:

خلعت هياكلَها بجرعاء الحمى ... وصَبَتْ لمغناها القديم تشوّقا

وتلفّتت نحو الديار فَشَاقَها ... ربعٌ عفت أطلاله فتمزّقا

وقفت تسائله فردَّ جَوابها ... رَجْعَ الصبا أن لا سبيل إلى اللقا

فكأنها بَرْقٌ تألّق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه ما أبرَقا

قال ابن أبي أصيبعة في كتاب **طبقات الأطباء**: "كان السهروردي المذكور أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية، جامعا للعلوم الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله".

ويقول مؤرخ حلب الشيخ راغب الطباخ في كتابه **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**(٩): "إن من تأمل في أدعية هذا الرجل وكلامه هنا وفي كتابه هياكل النور ونظمه الذي أوردناه، خصوصا الأبيات التي أنشدها عند مماته، يستدل على أنه كان رجلا من أعاظم الرجال الذين سمت إلى العلياء نفوسُهم وزهدوا في هذه الحياة الفانية وتيقّنوا أنها عرضٌ ووجهوا قلوبهم إلى الله تعالى. وأقبلوا بكليتهم إلى جناب قدسه، والذي يتراءى لنا من شعره أنه شعر رجل صدِّيق لا شعر رجل زنديق".

هكذا يرفع المؤرخ الحلبي راغب الطباخ الفيلسوف الإشراقي السهروردي إلى مرتبة الصدِّيقين.

مؤلفات فيلسوف أديب وقاص وشاعر:

ترك السهروردي عددا من الكتب والرسائل منها: كتاب **التنقيحات في أصول الفقه**، وكتاب **التلويحات اللوحية والعرشية**، وكتاب **المقاومات** وهو لواحق على التلويحات، وكتاب **الألواح العمادية**، وكتاب **هياكل النور**(١٠)، وكتاب **الطارحات**، وكتاب **المعارج والكرامات**، وكتاب **اللمحة**، وكتاب **الأسماء الإدريسية**(١١)، **وصوت أجنحة جبريل**، وكتاب **حكمة الإشراق**، **ورسالة الغربة الغربية**(١٢) وهي على غرار **رسالة الطير** لابن سينا **ورسالة حي بن يقظان** لابن سينا أيضاً، وهي نموذج رائع للقصة الرمزية ملخصها: أنه سافر مع أخيه عاصم إلى بلد الظالم أهلها ــ قيروان ــ فقيدهما أهلها بالسلاسل ورموهما في الجب، وكان فوقه قصر، وقالوا لهما لا جناح إن صعدتما القصر مجردين مساء، وفي الصباح لا بد من النزول إلى الجب، وفي الصعود والهبوط أبصرا الهدهد مسلماً ومعه كتاب في منقاره، وقادهما إلى الخلاص فركبا سفينة إلى طور سيناء ورأيا أباهما شيخا كبيراً تكاد السموات والأرضون تنشق من تجلي نوره، وأنباهما أنهما لا بد أن يرجعا إلى السجن الغربي لكنه بشرهما بإمكانية الصعود إليه متى شاءا إلى أن يتخلصا نهائيا من السجن، ثم يقول في القصة: "اعلم أن هذا جبل طور سيناء وفوق هذا مسكن والدي، ولنا أجداد آخرون حتى ينتهي النسب العظيم إلى هذا الجد الأعظم الذي لا جدَّ له ولا أمّ، وكلنا عبيده وبه نستعين ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم والجلال الأرفع وهو فوق الفوق ونور النور وهو المتجلي لكل شيء بكل شيء، وكل شيء هالك إلا وجهه ثم يقول "نجانا الله من قيود الهيولى والطبيعة".

ومن الواضح أن هذه القصة الرمزية هي تمثيل فنّي قصصي لفلسفته في الأنوار وتشعشعها وهبوطها وصعودها وخلوص النفس من عالم الغواسق والأجسام. ونظرا لأهمية هذه القصة أورد مقطعا من بدايتها مع شرح بعض رموزها داخل الأقوال، يقول السهروردي:

"لما سافرت (= الروح المسافرة الهابطة) مع أخي عاصم (= القوة الفطرية، المعرفية العاصمة من الضلال) من ديار ما وراء النهر (= العالم الأعلى) إلى بلاد المغرب (= عالم الهُيُولَى الغريب عن عالم الروح) لنصيد طائفة من طيور (= العلوم الجزئية، الكمالات الممكنة للنفس) ساحل اللجة الخضراء (= العالم المادي المحسوس، العقل المستفاد) فوقعنا بغتة في القرية الظالم أهلها أعني مدينة قيروان (= الدنيا، العالم الأرضي، الجسد) فلما أحس قومها (= القوى الترابية الجسمانية، غواسق الأبدان) أننا قدمنا عليهم فجأة، ونحن أولاد الشيخ المشهور بالهادي بن الخير اليماني (= الفيض الأول. العقل الفعّال، واليماني لقوله صلى الله عليه وسلم: إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن)،

أحاطوا بنا، فأخذونا مقيدين بسلاسل وأغلال من حديد (= الغرائـز والشـهوات، والهيئـات الدنيويـة الردية) وحبسونا في قعر بئر لا نهاية لسمكها (البدن، العالم الظلماني، عالم العناصر). وكان فوق البئر المعطلة التي عمرت بحضورنا (= بحلول الروح في الجسـد) قصـر مشـيد (= النفـوس الفلكيـة) وعليهـا أبراج عدة (= الأفلاك) فقيل لنا: لا جناح عليكم إن صعدتم القصر متجردين اذا أمسيتم (= اذا نمتـم، في النوم تتعطل الحواس وتتحرّر الروح) أما عند الصبح (= العودة إلى أسـر المحسوسـات) فـلا بـد مـن الهُويّ في غيابة الجب).

ومن إشراقات الرمز في "قصة الغربة الغربية" إلى دفء المناجيات الإلهية في "صوت أجنحـة جبريل" إلى عذوبة الشعر الغزلي الصوفي في **ديوانه** يبرز لنا السـهروردي واحـدا مـن أهـم أعـلام الأدب والشعر والإبداع في عصر كانت تسيطر فيه مدرسة القاضي الفاضل في التكلّف والتصنيع.

وقد نظم السهروردي الموشحات، وما حفظ منها يدل على ذوقه الفنّي الرفيع يقول من موشح له:

علـى العقيق اجتمعنـا نحن وسـود العيـون
أظـن مجنـون ليلـى ما جـن بعض جنـوني

(دور)

إن مت وجـداً عليهم بـأدمعـي غَسّلونـي
نوحـوا علـيّ وقـولوا هـذا قتيـل العيـون

(دور)

أيـا عيـوني عَيـونـي ويا جفـوني جَفوني
فيـا فـؤادي تصبـر على الـذي فارقوني

مما لا شك فيه أن طائفة السهروردية في حلب كانت تغني هذه الموشحات، وكان لها إسهام كبير في الموسيقى الحلبية، وإن موشحا بلغ مرحلة متقدمة من النضج الفني كموشح السـهروردي يعـود إلى القرن السادس يؤكد لنا أن الموشح نشأ قبل ذلك في القرن الخـامس الهجـري وربمـا الرابـع، وهـذا بدوره يؤكد النشأة المشرقية للموشحات. وقد عملت المتصوّفـة في تبسيط أشـكال الموسـيقي الكلاسـيكية للناس وجعلها أكثر شعبية، وكان لطائفة السهروردية دور فعال في ذلك(١٣) تشير إلى دور هذه الطائفة "السهروردية" في الموسيقى الهندية وبخاصة الشيخ بهاء الدين زكريا من ملتان (من أكبر مدن باكستان وأقدمها)، أهم أعلامها، فقد ترك تأثيرا عميقـا في الموسـيقى الهنديـة وخاصـة في الأغـاني الشـعبية في البنجاب والسند، والشيخ فقير الله من راجا داربان حيث ينسب إليه الكثـير مـن الأرجـاز الغنائيـة، بالإضافة إلى أنه مبتكر الآلة الموسيقية المعروفة باسم "خيال". ونحن لا نسـتغرب اعتمـاد السـهروردية على الموسيقى والغناء والتواشيح ذلك أنها تعتبرها غذاء للروح ووسيلة معينة لإشراقات النفس.

واحترام السهروردي للفن يتجاوز الموسيقى والغناء إلى فنون أخرى كـالتمثيل، وكـان يحضـر عروض خيال الظل في حلب، يقول:

رأيت خيال الظل أكبر عِبْـرة ... لمن كان في علـم الحقيقـة راقِ
شخوص وأشباح تمرُّ وتنقضي ... سريعـاً وأشكال بغـير وفـاقِ
تجيء وتمضي تارة بعـد تارة ... وتفنى جميعـاً والمحـرِّك باقِ

هكذا يستفيد من المسرح ليؤكد فلسفته في الحق والخلـق، عـالم الصـور والغواسـق والأبـدان، وعالم الأنوار.

رسالة في العشق وعروج الأنوار:

- أبـدا تحـنُّ إليـكُـــم الأرواحُ ... ووصـالكـم ريحانُهـا والـــراحُ
- وقلـوبُ أهـلِ ودادكـم تشتـاقكُمْ ... وإلـى لـذيـذِ لقـائكـم تـرتـــاحُ
- وارحمتـا للعـاشقـين تكلـفـــوا ... سترَ المحبـة والهـوى فضـاح
- بالسـر إن باحـوا تبـاح دماؤهم ... وكـذا دماءُ العـاشقين تبـاح
- عودوا بنورِ الوصلِ من غسَقِ الجفا ... فـالهجـرُ ليـلٌ والـوصـالُ صبـاح
- صـافـاهم فصفـوا لـه فقلـــوبهم ... في نـورهـا المشكاةُ والمصبـــاح
- وتمتعـوا فالـوقتُ طابَ بقربكـم ... راقَ الشـرابُ ودارتِ الأقـــداح
- لا يطـربون بغـير ذكـرِ حبيبهـم ... أبـدا فكلُ زمـانهم أفـــــراح
- حضروا وقد غابت شَواهدُ ذاتهم ... فتهتكـوا لمـــا رأَوْه وصـــاحوا
- أفناهُـم عنهـم وقـد كُشِفَتْ لهـم ... حجبُ البقـا فتـلاشتِ الأرواح

أهي قصيدة في العشق، أم رسالة فلسفية؟

وهل ينفصل العشق عن الإشراق، والعشق علة إشراقات النور وحركة الكون، والسهروردي هو أول فيلسوف إشراقي يؤلف رسالة في العشق كما أشار إليها الشهرزوري في **نزهـة الأرواح وروضـة الأفـراح**، ولا نجانب الصواب إذا قلنا أن هذه القصيدة هي الهيكل الشعري لفلسفته الإشراقية، ومهما يكن فإنه بمثل هـذا الشعر المُشْرق غزا شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي قلوب الناس، وما كان شعره إلا النتاج الإبداعي لعشقه الإلهي وفلسفته الإشراقية التي تقيم تفسير الوجود على أساس النور وقواعده في الوقت الذي كان فيـه العرفان (= التصوف) يقيم تفسير الوجود على أساس الأسماء والصفات.

إن الحنين الذي تتحدث عنه الأبيات هو واحد من أهم قواعد فلسفة الإشراق، فالنور عاشـق بذاته لذاته، فإذا هبط من موطنه الأقدس إلى البرازخ والظلمات الدنيوية (= كل ما هو جسـم مـادي أو

بدن) اشتاق بجبلته وجذبه النور العلي اللامتناهي الأتم الأنوار إليه، فعرج وارتد ثانية إلى مبدئه، والأنوار الاسفهبدية(١٤) تستطيع العودة إلى مبدئها بتحرير ذواتها مما يثقلها في عالم البرازخ المادي والجسماني، وهذه الأنوار نوعان:

١- أنوار متصاعدة بمعينات خارجية

٢- أنوار متصاعدة بذواتها، وأصحابها هم الأولياء والأئمة المعصومون.

طوالع الفلسفة الإشراقية وثورة على المشائية:

قبل أن نتحدث عن أهم قواعد الفلسفة الإشراقية التي أرسى السهروردي أسسها لا بد أن نشير إلى سِنخها فنعود إلى نقطتين:

- **الأولى:** هي ظهور طوالعها في نظرية المعرفة عند أفلاطون، وكانت فلسفته ذات بعدين متلازمين:

أ- البعد العرفاني الذي تمثله قوة الربوبية وروح التأله، والاتصال بقدس الإلهية.

ب- البعد العقلي الذي تمثله قوة الاستدلال المنطقي.

ونجد أن البعد الأول نما واستمر في الأفلاطونية الحديثة وكان أفلوطين وفرفوريوس وبركلس أبرز أعلام وقد شكل أحد عناصر فلسفة الإشراق، كما نما البعد الثاني واستمر عند أرسطو ومن خَلَفَه من المشائين.

لم تعترف المشائية التي تعتمد في المعرفة على العقل والاستدلال والبرهان والتجربة بالعرفان ومعطياته، ولم تقر أصول الكشف والشهود في الوصول إلى المعرفة. وقد حمل لواء الفلسفة المشائية الإسلامية عبقريات كبيرة كابن سينا والفارابي وابن رشد ونصير الدين الطوسي ومحمد باقر الداماد وبه انتهت سلطة المشائية فهو خاتمهم ومن جاء بعده لم يكن ذا أثر. وبالرغم من أن المشائية الإسلامية احتفظت بأصول المشائية الإغريقية وطرقها في الاستدلال والإثبات، إلا أنها اختلفت عنها عند بعض المشائين الإسلاميين كابن سينا بإقرار أسس العرفان، فقد استندوا إليه في توسيع نطاق البصيرة وإثراء المفاهيم الفلسفية، ومع هذا فإنهم لم يدخلوا هذه الأسس في استدلالاتهم العقلية. وقصيدة ابن سينا في النفس الناطقة:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمي ولما تقلِع

تعتبر من أهم ركائز الجانب العرفاني في فلسفته، والمقدمة التاريخية لقصيدة السهروردي العشقية "أبدا تحن إليكم الأرواح".

عندما طلعت الإشراقية على يد السهروردي كانت انقلابا حقيقيا في الفكر وثورة على

المشائية، ففي حين نرى المشائية تعرض عن الاستدلال العقلي في الحصول على المعرفة وتعتمد طريق السلوك العرفاني الإشراقي فإن الإشراقية أستفادت من المشائية والعرفانية معا، فالإشراقيون لم ينسفوا أصول الاستدلال المنطقي، ولم يرفضوه، وإنما أقَروّه كمنبه للعقل وباعث للقوى السلوكية بالإثارة والتشويق والتحريض، وجعلوا المنزلة الأولى للسلوك الإشراقي في الوصول إلى المعارف الكبرى. فالإشراقية في جوهرها فلسفة استدلالية عقلية وسلوكية إشراقية هدفها اتصال الأنوار التي هبطت إلى البرازخ والفواسق بالنور الأتم الأقداس. وهي تشترك مع العرفان في إقرار أصول الكشف واعتمادها، كما أشرنا إلى النقطة الرئيسية التي تفترق فيها عن العرفان في تفسير الوجود، وبهذه الممازجة وبسنخها الزرادشتي الذي سنتحدث عنه. وبهيكلها الفكري الإسلامي استطاعت أن تفتح طريقا جديدة للعقل غير الطريق الذي سارت عليه المشائية، ممدّة العقل الإنساني والروح الإنسانية التائقة بطاقة جديدة وحرية واسعة في الخلق والابتكار كانت مرتكزا للكشف النوراني، وهيأت لهما قفزات سديدة وسريعة للوصول إلى الحقائق بعيدا عن قيود وجمود الاستدلال وشطحات الصوفية.

وكان لا بد لمسيرة المعرفة أن تتابع طريق التطور والتنامي، فقد تلا الفلسفة الإشراقية طلوع الحكمة المتعالية عند صدر المتألهين الفيلسوف صدر الدين الشيرازي (٩٧٩-١٠٥٥هـ = ١٥٥٤-١٦٣٤م)[١٥] الذي جمع في حكمته بين الفلسفة والعرفان، وبين الإلهام والاستدلال، ودمج ما بين العناصر المشائية والإشراقية والعرفانية والدينية، وأكد أن الشرع والعقل متطابقان في جميع المسائل الحكمية، وقال بوحدة الوجود، وتفرد بطرح **نظرية الحركة الجوهرية** التي ترتقي بها البشرية وتسير بها الأشياء نحو الكمال ورغم أن هذه النظرية تبدو وكأنها حاملة في أعماقها بذور الداروينية إلا أنها تختلف بشكل جذري عنها.

-الثانية: لا شك أن الفلسفة الإشراقية هي فلسفة إسلامية في بنيتها تشكل الآراء الدينية الإسلامية أهم مكوناتها وعناصرها، ولا يقصد بالفلسفة الإسلامية أن تعني فلسفة دينية نص عليها أو جاء بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفقهاء الإسلام والأئمة، بل هي الفلسفة التي توافق في خطوطها الكلية للفكر الإسلامي ومفهومه عن الوجود مع إمكان الاختلاف في نقاط من التفكير بفعل التمازج الديني والثقافي، وبفعل حركة فكر المفكر نفسه. وقد أشرنا إلى العناصر الإغريقية فيها، ونشير الآن إلى أن هناك عناصر فارسية وبخاصة الفلسفة الفارسية القديمة التي بلغت أوج كمالها في الزرادشتية.

يقول السهروردي في كتابه حكمة الإشراق:

"إن قاعدة الإشراق هي طريق النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس مثل جاماسب وفرشادشير وبزرجمهر ومن قبلهم" وهو يؤكد أن هؤلاء الحكماء لم يكونوا من القائلين بظاهر النور

والظلمة، وإله الخير والشر، أي لم يكونوا من كفرة المجوس وإلحاد "ماني" ... وما يفضي إلى الشرك بالله تعالى، وإنما كانوا موحدين ومؤمنين بالله تعالى.

في الديانة الفارسية القديمة المعبود الحق، الأحد، الذي يرجع إليه الوجود هو "أهورا مزدا" وقد خلق بحكمته وجودين:

١- الأول هو الوجود النوراني الخير المتصل بذاته، والمتواجد في عالم الإنسان يبث فيه الخير، وله إمكان الوصول إلى العالم الرباني إذا تحرر من المعيقات الظلمانية وهذا الوجود النوراني يتمثل في عدة وجودات نورية تسمي "ايزدات وامشابندات" يسيطر عليها وجود أقوى هو "الايزد" أو "اليزدان" وهو ليس الله وإنما يعادل الملائكة في الإسلام.

٢- الثاني هو الوجود الظلماني الشرير وهو ملحق بجذر العدم، وسنجد هذا الأمر أيضاً عند صدر المتألهين حيث يعتبر العدم شرا مطلقا وقد عبروا عن قوة الشر هذه وممدها بـ "أهريمن" ويقابله في الإسلام الشيطان وليس لاهريمن القدرة على مقاواة السلطان الاهورائي وإنما هو مقهور أمامه لأنه لا يقع مقابله وإنما يقع مقابل اليزدان.

والنفس الإنسانية في الحكمة الفهلوية والخسروانية ـ الاهورائية ـ تعاني الصراع بين الايزدات والاهريمانات، ويقابل ذلك في الإسلام الصراع بين الملائكة والشياطين أي بين قوى الخير وقوى الشر.

وحقيقة الوجود في القصيدة الاهورائية هي النور، وأهورا مزدا (= الله هو النور الأتم الأقهر الأبهر، الواجب الوجود، مخرج الأشياء من الظلمة (= العدم) إلى النور (= الوجود)، وكلما هبطت الأنوار بتشعشعاتها وانسكابها إلى الفواسق والأبدان تقلصت وسادت أحكام الظلمة، فهي لذلك نحن دائما إلى مبدئها لترجع إلى النور الأتم الأقهر.

استوعب السهروردي جميع هذه الفلسفات القديمة، والأفكار الدينية التوحيدية، والسلوكيات العرفانية، وتمثلها بفكر منفتح، فبنى منها حكمة الإشراق.

الحركة والتجدد هما سر استمرار الوجود. والثورات الفكرية التي عصفت بالفلسفة كانت ضرورية لحياة الفلسفة واستمرارها، ويشكل طلوع الفلسفة الإشراقية هي أفق الفلسفة والعلم واحدة من أهم هذه الثورات، وقفزة كبيرة في تطورها التاريخي حررت بظهورها الفكر من التجمد وفتحت العقل طريقا آخر غير ما كان يسير عليه المشاؤون.

القواعد الأساسية للفلسفة الاشراقية:

من التهم التي وجهت إلى السهروردي وكانت السبب في مقتله: "اعتقادة مذهب الحكماء المتقدمين". والسهروردي لا ينفي ذلك وإنما يدافع عنهم في كتابه: **رسالة في اعتقاد الحكماء**. يقول في مقدمة هذا الكتاب:

"وسبب تحرير هذا الكتاب هو أني لما رأيت أنه تطرق ألسنة الناس إلى أهل العلم من الحكماء المتألهين، واشتد التكفير في حقهم، ومنشأ ذلك بسبب ظن الناس في حقهم بأنهم هم الدهرية الذين لايقولون بالصانع ولا بالأنبياء ولا بالحشر ولا بالنشر والمرجع والمعاد، ولا بالعذاب والراحة بعد الموت، نعوذ بالله من هذا الكلام، فعليهم لعاين الله وعلى محبيهم".

ودفاعه هذا لأغراض ثلاثة:

١- إزالة الالتباس وعدم الفهم، وشرح حقيقة معتقدات الحكماء الأوائل الوجدانية قبل الإسلام.

٢- التقريب بين هذه المعتقدات الوجدانية القبل الإسلامية وبين المعتقدات الإسلامية.

٣- وبما أن لهذه العناصر الإغريقية والفارسية القديمة مؤثرات في فلسفته فهو بدفاعه هذا واتباعه صوابها يرسي قواعد كلمة الإشراق.

وهو يورد آراء الحكماء ومعتقداتهم مقدِّمة بقوله: ويقولون، ويعتقدون، وسنورد بعض هذه الآراء مختصرة.

أ- ويقولون: أول ما أبدع الله تعالى أمرا عقليا حيا عالما، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "أول ما خلق الله تعالى العقل".

ونلاحظ هنا غرض التقريب عند السهروردي بين الآراء القبل إسلامية والإسلامية.

ب- ويعتقدون بأن الله تعالى لا يبدع شيئا بناء على إرادته، إذ الإرادة لا تكون إلا عند ترجيح أحد الجانبين على الآخر، إما النفع عائد إلى ذاته أو لنفع راجع إلى فضوله ... إلى أن يقول: فإذن لا يكون فعله بناء على غرض بل ذاته يقتضي الوجود.

ج- ويعتقدون أن الإنسان أشرف الحيوانات الأرضية وله نفس ناطقة. والنفس الناطقة عند الحكيم عبارة عن جوهر عقلي ليس في عالم العنصري ولا في عالم الأثيري، بل لا يتصور وجوده في عالم الأجسام وليس فرق بينه وبين الملائكة إلا تصرفه في عالم الأجسام. والنفس الناطقة قائمة بنفسها. لا في أيت. عالمة. مدبرة للأبدان كما أشار إليه التنزيل ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ وهي العقول ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ وهي النفوس.

د- ويعتقدون أن العوالم ثلاثة: عامل العقول وهو عالم الجبروت وعلم النفوس وهو عالم الملكوت. وعالم الملك وهو عالم الأجرام.

هـ- ويعتقدون أن نفس الآدمي بعد المفارقة (الموت) إن كانت عارفة بالله وملائكته تلتذ بالقرب من الله فتجد ما لا عين رأت. ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر (وهذه هي الجنَّة)، وإن كانت جاهلة بالله وملائكته تتألم بعذاب الحجاب عن الله وبما فات من راحة الدنيا، وباكتسابهم الهيئات السردية.

هذا المفهوم الباطن للجنة والنار والذي يتبناه السهروردي بدفاعه جاء به ابن عربي في **فصوص الحكم** (انظر الفص السابع) حتى أرجع عذاب النار إلى العذوبة وجعل النار مرتبة دنيا من النعيم لأنها ستكون برداً وسلاماً كنار إبراهيم، وعذاب أهل النار هو في احتجاب الله عنهم وعدم معرفتهم به.

هـ- ويعتقدون أن الأنبياء عليهم السلام مبعوثون بالحق لصلحة نظام العالم وليذكروهم بالآخرة وأن النفس إن كانت شريفة وقوية تتصل بروح القدس وتأخذ منه العلوم ويحصل على هذه الدرجة الأولياء والأنبياء غير أن الأنبياء مأمورون بإصلاح الخلق وأداء الرسالة.

في كتابه حكمة الإشراق وهو الجامع لفلسفة الإشراقية يتحدّث السهروردي عن الطبائع فيقسمها إلى طبائع متكررة ممتنعة وهي طبائع الوجود المادي والجسماني، وطبائع غير متكررة وهي الماهيات النورية.

ويرى أن المبدأ الحقيقي للوجود هو الواجب الوجود بذاته، النور الأتم الأقهر الأبهر ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...** ﴾ الخ الآية(١٦)، والنور ينسكب متشعشعا ابتداء من النور الأتم وحتى أضعف الأنوار في الفواسق والبرازخ، والمعرفة تتم بالكشف والإشراق النوراني وذلك بانسكاب الأنوار العقلية على الأرواح وظهورها ولمعانها وفيضاناتها بالإشراقات على النفس حين تجردها.

هذه الأنوار هي عماد العالم المادي والروحي، أما العقول المفارقة فما هي إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها.

وللنور الأتم صفات ذاتية أزلية هي العلم والحياة والقدرة والمشيئة والسمع والبصر والتكلم، لا تنفك عنها حتى ولو هبطت في الفواسق وإنما تختفي داخلها لتسود أحكام الظلمة.

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(١٧).

﴿**هُوَ الْحَيُّ**﴾(١٨).

وشعلة النور الجوالة من رأس مخروط النور إلى قاعدته لا تنطفئ أبدا. وللنور حسب انسكابه وتشعشعه عدة عوالم:

١- العالم الإلهي الأقدس وهو عالم الوجوب والغنى والإحاطة.

٢- عالم الإمكانيات، وينقسم إلى:

أ- عالم الأنوار القاهرة الطولية.

ب- عالم الأنوار القاهرة العرضية وعنها تنشأ الأنواع الأرضية والفلكية.

ج- عالم الأنوار الاسفهبدية الفلكية.

د- عالم الأنوار الاسفهبدية الإنسانية وغير الإنسانية.

هـ- عالم المثل المجردة المنفصلة وهو عالم الأشباح المعلقة وعالم المثل الهندسية المجردة عن المادة وهذا العالم (المثل) يختلف عن المثل الأفلاطونية، فالإنسان يمكن أن يرى فيه كل ما هو موجود في العالم الحسّي من غنى وتنوع غير أنه في حالة لطيفة لا مادية.

و- عالم البرزخ وهو عالمان: عالم الصياصي والشبكات. وعالم الفواسق والأجسام.

يقول السهروردي في "هياكل النور" أن فينا نورا شارقا لذيذا، والأجسام تشاركت في الجسمية وتفاوتت في الاستنارة. ونفوسنا الناطقة أنوار قائمة بنفسها، والنفس هي قائم دلّت على الحي بذاته. نور الأنوار، المجرد عن الأجسام وعلائق الأجرام وهو "المحتجب لشدّة ظهوره" ولهذا فأنت (المخصوص طبيعة النور في الإنسان) لا تغفل عن ذاتك مع إمكانية أن تفصل أحيانا عن جزء من بدنك لأنه خارج عن ذاتك النورانية، فأنت لست جملة هذه الأعضاء والأجزاء من البدن وانما أنت وراء هذه الجملة.

وكما أن فينا نورا شارقا لذيذا فكذلك في الأفلاك، وهكذا فإن المُمِدّ للأفلاك جوهر عقلي، وحركة الكون إرادية، والأفلاك لها ارادة كلية، ولها إدراك كلي، ولها نفوس ناطقة. وهي أولى باللذات الروحانية إذ ليس لها نزعات شهوية ولا غضبية ولا حيوانية.

وهو يعتبر الشوق والعشق سرّ الحركة الجوهرية لكل الموجودات في العالم. فواجب الوجود هو غاية جميع الموجودات كمالات (أنوار شارقه) طالبة لكمالاتها، ساعية إلى تحصيل ذلك الكمال الكلي (نور الأنوار) يقول في كتابه (المشارع والمطارحات): "وإن لكل نوع من الأنواع المفارقة والأتربة والعنصرية كمالا ما وعشقا إلى ذلك الكمال، وإن تصوّر فَقْدِ ذلك الكمال هو شوق، ولولا العشق والشوق إليه (= الكلي الكمال) لما حدث حادث ولا تكون كائن أصلا.

وجميع الموجودات متناهية إلى عللها، وعللها متناهية إليه (أي إلى الذي نوريته غير متناهية الشدة، وهو نور الأنوار، واجب الوجود، نظم الوجود ورتبه وحفظ نظامه باللانهاية. وهو قاهر بنوريته جميع الأنوار، وشدة نوريته حجاب لنوريته، فاختفاؤه عنا لشدة ظهوره، والوجود كله منطو في قهره.

فالأجرام (.. ومنها الأجسام انطوت في قهر النفوس، والنفوس تنطوي في قهر نورية العقل، والعقول تنطوي في قهر نورية المعلول الأول، والمعلول الأول ينطوي في قهر نورية القيوم نور الأنوار.

مما ساعد الفلسفة الإشراقية في تناول الحقائق الكبرى وتقديم تفسير لها هو ارتكازها على أمرين معاً:

١- إقرارها أصول الكشف والشهود انطلاقها من رؤية كونيه كليـة قائمـة علـى التفكـر والعرفـان (الحدس العرفاني والمعرفي).

٢- اعتمادها على الاستدلال العقلي لتقرير الأصول والمبادىء وفي تناول المسائل (المنطق العقلي).

أن ما وصل إليه السهروردي بإشراقيته، وما أتى به فلاسفة آخرون قبله، هو موضوع بحـث طائفة من العلماء اليوم.

يقول العالم الفيزيائي جان. أ. شارون: "أن كل المادة إذن تصبح حاملة للروح، وكل محاولة لإقامة تصور علمي حتى ولو كانت محاولة البيولوجيا إذا ما أقصت حقيقة الروح فإنهـا تصبـح ملفقـة ولاغية، أن الموقف العلمي الحالي يقوم على التمسك بأحسن نموذج تقدمه الفيزياء وهـو النمـوذج الـذي يقر بوجود الروح في كل جُزَيْء من جزيئات المادة".

لقد كانت فكرة أن الكواكب كائنات حية وذوات أنفس ناطقة كما عبّر عنها السهروردي تبـدو صعبة القبول، لكن وصول الإنسان إلى القمر ورحلات الفضاء حركت من جديد هذه الأفكار القديمـة، وأن مشاهدة الأرض من الفضاء أعطت بارقة جديدة تتمثل أن الكوكب ككل قد يكون كائنا حيا. وأن ملاحظـة الاستقرار المتجانس والتوازن المذهل على سطح كوكب الأرض دفـع إلى مجـال الاهتمـام المـتزايد بالفرضيـة العلمية التي ترى أن أفضل طريقة لفهم كيمياء الكوكب وبيئته وبيولوجياه هو النظر إليـه كمنظومـة حيـة واحدة.. أي ككائن حي كما أشار إلى ذلك السهروردي وصدر الدين الشيرازي وفلاسفة آخـرون. ويضيـف السهروردي قائلا: "وللأفلاك أصوات غير معللة بمـا عندنـا، ويجـوز في الأفـلاك أصـوات ونغمـات غـير مشروطة بالهواء المصاكة". هذا الوعي الكوني في نهر الكون .. في الكواكب، في الذرة... الذي تحدث عنه دافيد بوهم، لفلوك، شارون .. وغيرهم .. هو ذلك النور الشارق اللذيذ في الأفلاك والأبدان .. الفائض عـن النور الأتم الأقهر، والمشوق إليه، العاشق لذاته بذاته، هو "النفس" التي تحرك جميع الموجـودات وتنظـم قوانينها، وتحفظ توازنها واستقرارها .. كما يرى السهروردي.

والتوازن والاستقرار لا يعنيان انعدام التضاد، فالتضاد من ضرورة اللانهاية، ولـولاه مـا صـح الكون والفساد، ولولاه ما صح دوام الفيض على التجدد المستمر، ولم يحصل من النفوس الناطقة المبلـغ اللامتناهي، ولولاه لانعدمت الحياة، فما هو شر بالنسبة لشـخص مـا، إذا تم النظـر إليـه مـن خـلال النظام الكوني فهو خير.

وعلى أساس النور تبنّى السهروردي نظريته في المعرفة، فالنور عاشق بذاته لذاته، إذا تـنزل إلى البرازخ والغواسق والصياصي الإنسانية انعطف إلى مبدئه الأتم الأنوار واشتاق إليه بفطرتـه فيجذبـه النور الأقهر إلى قدسه وهذا يعني أن هذه الأنوار الشارقة لا تحل في أجساد أخرى بعد فساد صياصيهـا

(الموت) لكمال قوتها وشدة انجذابها إلى ينابيع النور، وإنما هي نزلت أصلا إلى عالم "الظلمات الجسدية" لاستكمال معرفتها بعالم الجزئيات واصطياد بعض الكمالات الممكنة والعلوم الجزئية (عد إلى المقطع من قصة الغربة الغربية).

ثم يقع النور النازل المتصاعد على أفق الجلال، فيشعشع من ذلك الأفق ويمد سائر الأنوار التي نزلت كي تصعد من جديد إلى النور الأول، مبتدأ الإشراق، وثمة أنوار صاعدة بذواتها لكمال قوتها، وأنوار أخرى في حاجة إلى ممدات خارجية لاستكمال صعودها.

ومثلما انبثق العالم من إشراق الحق، وانسكاب الأنوار، وتشعشعها، فإن المعرفة تعني الوصول العيني إلى الحقيقة العينية، وذلك لا يتم إلا بتصاعد الأنوار الاسفهبدية من جديد إلى مبتدئها بعد نزولها الأول، وبرحلة الأنوار النازلة الصاعدة، وبهذه الجوهرية الكلية المستمرة المتجددة تتحقق المعرفة.

هذا هو السهروردي، سيد الوقت، وحكيم العصر، وواضع أسس الفلسفة الإشراقية، وأحد بناة المعرفة الإنسانية، ومن أحيطت حياته بهالة قدسية، وكانت شهرته تتقدمه إلى كل بلد حله، قضى وهو في ريعان شبابه، ولو امتد به العمر لكان له شأن آخر لم يبلغه إلا القدرة في تاريخ لمعرفة الإنسانية(١٩).

* * * *

هوامش

١- دفين حلب هو السهروردي المقتول، فيلسوف الإشراق، وقد دعي بالسهروردي اثنان أيضاً هما: عبد القاهر بن عبد الله السهروردي (٤٩٠-٥٦٣هـ/ ١٠٩٧ - ١١٦٨م) وهو فقيه شافعي واعظ متصوف، ولي المدرسة النظامية، وتوفي في بغداد، و من تأليفه: **آداب المريدين في شرح الأسماء الحسنى** (محفوظ)، **وغريب المصابيح** (محفوظ)، وهو يعرف بالسهروردي البغدادي.

والثاني هو محمد الأمين بن عبد الرحمن السهروردي (١٢٥٢- ١٣٢٠هـ/ ١٨٣٦- ١٩٠٢م) ولد وتوفي في بغداد، أديب، مدرس وعضو محكمة الاستئناف ومدير بلدة سامراء له من تأليفه: **تاريخ بغداد و مجموعة أدب و ديوان شعر**.

وضريح السهروردي الحلبي متواضع، مهمل، ملاصق لجدار القبلية، علقت عليه مؤخرا لوحة تعرف بصاحبه، ومن الواضح أن جدار القبلية الذي يفصل المسجد عن مخفر الشرطة حاليا لم يكن موجودا في الأصل، إنما أنشئ بعد اقتطاع هذا الجزء من المسجد. وليس له أية صفة أثرية ومن الأفضل ضمه إلى الأصل، وسواء أكان الضريح في موقعه الحالي أو على بعد عدة أمتار منه فإن هذا المكان هو مدفنه، ولابد من العناية به ليكون لائقا بواحد من أعلام الفلسفة والفكر الإنساني.

٢- الطباخ، **أعلام النبلاء**، ج٤، ص ٢٩٧.

٣- الطباخ، **أعلام النبلاء**، ج٤، ص ٣٠٣.

٤- الحلاج حسين بن منصور، صوفي مقتول (٢٦٧-٣٠٩هـ).

النسيمي عماد الدين علي، حروفي مقتول (٧٧٠-٨٢٠هـ).

السلاخ: لم نعثر على ترجمته.

٥- يروي المسعودي في **مروج الذهب** أسطورة شبيهة بأسطورة قبة دانيال وذلك أن في بلاد الصين هيكل عظيم فيه بئر ما أكب عليها إنسان إلا هوى فيها، ومكتوب عليها بالخط المسند: "هذه بئر تؤدي إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء، وما كان فيما مضى من الدهر، وما يكون فيما يأتي معه، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلا من وازت قدرته قدرتنا أو اتصل علمه: بعلمنا، وصارت حكمته كحكمتنا".

٦- أ- اخبار السهروردي في كتاب **طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، ص ٦٤١- ٦٤٣. دار مكتبة الأجيال ـ بيروت، وفي **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ص ١٦٧-١٧١، ج ٢.

٧- أ - **مقدمة ابن خلدون**، ص ٩٦، ط ١٩٧١م.

٨- كتب بعض علماء حلب إلى صلاح الدين الأيوبي: "أدرك ولدك الظاهر وإلا تلفت عقيدته، فكتب إليه أبوه بإبعاده فلم يبعده، فكتب بمناظرته، فظهر السهروردي على العلماء، فقالوا: إنك قلت في بعض تصانيفك: إن الله قادر على أن يخلق نبيًا وهذا مستحيل، فقال: وما وجه استحالته فإن الله القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيء فتعصبوا عليه وأباحوا دمه "أ. **النجوم الزاهرة**، ٦/١١٤.

٩- **أعلام النبلاء**، ج٤، ص ٣٠٤.

١٠- يوجد نسخة منه في مكتبة داماد إبراهيم باشا، وكان يوجد نسخة ثانية في المكتبة الأحمدية بحلب.

١١- يوجد نسخة منه في المكتبة السلطانية بمصر.

١٢- مجموعة دوم مصنفات شيخ إشراق شهاب الدين يحي سهروردي در حكمت إلهي: ط تهران ١٩٥٢-١٣٣١، ويشتمل على كتبه: **حكمة الإشراق، رسالة في اعتقاد الحكماء، قصة الغربة الغربية**.

١٣- بحث إسهام المسلمين في الموسيقي الهندوسية: أمينة أحمد اهوجاء مجلة الهند ع ١٢٠، والطريقة السهروردية المشار إليها تعود إلى السهروردي البغدادي.

١٤- الاسفهبد قائد الجيوش والسهروردي يستعمل هذه الكلمة للتعبير عن طبيعة ووظائف هذه الأنوار.

١٥- من أهم مؤلفات صدر الدين الشيرازي التي وضع فيها فلسفته المتعالية: **مفاتيح الغيب**.

١٦- سورة النور، الآية: ٣٥.

١٧- سورة الشورى، الآية: ١١.

١٨- سورة غافر، الآية: ٦٥.

١٩- مصادر أخرى: **ابن الوردي** ٢/١٠٤، **مرآة الجنان**، ٣/٤٣٤، **لسان الميزان**، ٣/١٥٦، **الفهرس التمهيدي** ٤٥٦، **مفتاح السعادة**، ١/٢٤٧، **الأعلام**، ٩/١٧٠، **من السهروردي إلى الشيرازي وموسى الموسوى**، **معجم الأدباء**، ٦/٣١٩.

بطاقة أدبيـة

أديب وشاعر سوري من حلب باحث وناقد في التراث والأدب والمسرح

كتبه المطبوعة

- في الشعر:
  ١- مولد النور (مطبعة الأصل ـ حلب) ملحمة شعرية حوارية.
  ٢- القيامة (دار النفائس ـ بيروت).
  ٣ - الثورة الإسلامية في الشعر الملتزم (مشترك).
- في المسرح:
  ٤- مسرحية ثلاثة صرخات (مطبعة المعري ـ حلب)
  ٥- مسرحية السيد (مطبعة المعري ـ حلب).
  ٦- هبوط تيمور لنك (دار ابن رشد ـ بيروت).
  ٧- صناعة الأعداد (دار ابن رشد ـ بيروت).
  ٨- عرس حلبي وحكايات من سفر برلك (وزارة الثقافة ـ دمشق).
  ٩- مسرحية أنيس الجليس (دار مجلة الباحث ـ بيروت).
  ١٠- اللحاد (الموقف الأدبي ـ دمشق).
  ١١- أوبريت قلعة حلب (مشترك ـ كتاب الطلائع ـ دمشق).
- دراسات في المسرح:
  ١٢- مسرح الريادة (دار الأهالي ـ دمشق).
- في التراجم:
  ١٣- العلامة خير الدين الأسدي (الإدارة السياسية للجيش ـ دمشق).
  ١٤- الشاعر أمين الجندي (وزارة الثقافة ـ دمشق).
  ١٥- ياقوتة حلب عماد الدين النسيمي (اتحاد الكتاب ـ دمشق).
  ١٦- حافظ الشيرازي (الوعي الجمالي ـ مشترك ـ دمشق).
  ١٧- العلامة المظهري (نظرية الأمة ـ مشترك ـ دمشق).
- في الدراسة:
  ١٨- مدخل إلى علم الجمال الإسلامي (دار قتيبة ـ دمشق).
- في قصص الأطفال:
  ١٩- مسلسلة أحاديث وقصص (دار الكتاب ـ حلب).
  ٢٠- مسلسلة حكايات البراعم (دار الأندلس ـ بيروت).
  ٢١- مسلسلة الطفل السعيد (دار الأندلس ت بيروت).
  ٢٢- مسلسلة أحسن القصص (دار النفائس ـ بيروت).
- في التاريخ وببلوغرافيا المدينة:
  ٢٣- أحياء حلب وأسواقها (وزارة الثقافة ـ ودار قتيبة ـ دمشق).
  ٢٤- حلب القديمة والحديثة (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).
- مسرحيات للأطفال وقصص وبحوث ودراسات في المسرح والنقد الأدبي والأدب الشعبي والفلسفة والتراجم منشورة في الصحف والدوريات.
- تحت الطبع: مسافر إلى أروى (وزارة الثقافة ـ دمشق).
  دراسات في الشعر الشعبي الغنائي.
- أعمال تلفزيونية وإذاعية: مسلسلات درامية وتمثليات وبرامج ثقافية، مسلسل "حسن البيت" تلفزيوني عرض في عدة محطات، "مسلسل جوهرة" الصحراء تلفزيوني تحت التنفيذ، و توالي ١٥ مسلسلا اذاعيا.